معالم الحداثة في الشعر المغاربي الحديث

قراءة في نصوص الابداع والتنظير

Milestones of modernity in modern Maghreb poetry

Reading in the texts of creativity and theorizing

د/كمال لعور*

تاريخ الإرسال: 2019/10/15	تاريخ القبول:2019/12/10	تاريخ النشر:.2019/12/25

الملخص:

تشظت الحداثة الشعرية المغاربية في زمنها البكر بين محاولة الشعراء استدامة تقليد القديم، وتمثله نصا تقليديا وفد انموذجا من المركز، وبرغبة البعض في استكشاف الجديد واتباع اتجاهه،فكان من هؤلاء الشعراء من يعتمد مكونات البنية المرسخة للقصيدة التقليدية،ومنهم من راح يتقرى الطرائق المحدثة من أجل التجاوب مع الظواهر التي عرفتها الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في المغرب العربي، ونحسب أن تحديث الرؤية الشعرية النقدية كان ثوريا تجاوز أحيانا طروحات المركز، أما الابداع الشعري فكان متراخيا غير مواكب للطرح النظري لعوائق رصدناها عن كثب في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: الحداثة الشعرية، شعر الرواد، شعر مغاربي، شعر تونسي، النقد الجديد.

Abstract:

The poetic modernity of the Maghreb was initially divided between the attempt of poets to perpetuate the tradition of the old, and is represented by a traditional model of delegation of text of the Center.

المؤلف المرسل: د/كمال لعور laouer.kamel@yahoo.com

* جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف البريد الإلكتروني: laouer.kamel@yahoo.com

And the desire of some to explore the new and follow its direction, It was among these poets who adopt the components of the structure supporting the traditional poem, and some of them who tried the updated methods in order to respond to the phenomena experienced in the social, political and cultural life in the Maghreb.We think that the modernization of the critical poetic vision was revolutionary, sometimes exceeding the center's propositions, while the poetic creativity was lax and not contemporary to theoretical proposition Because of drawbacks we have closely monitored in this article.

***Key words**:*
Poetic modernity, poetry of pioneers, Maghreb poetry, Tunisian poetry, new criticism.

. مقدمة:

مثلما تأثر المغاربة بموجة الإحياء الشعري كذلك أثرت فيهم مدارس الشعر العربي الحديث من خلال الديوان، ومدرسة المهجر وجماعة أبولو، فقد انتقلت إليهم الأفكار التجديدية عن طريق الصحف المشرقية التي كانت تلقي طريقها نحو نخبة المثقفين والأدباء وكذلك عن طريق نقل الصحف المحلية لمقالات وأخبار الثقافة المشرقية، بل إن هناك من الأدباء المغاربة من انضم إلى مدارس المشارقة، ومن هؤلاء أبو القاسم الشابي الذي كان يمت بصلة وثيقة لجماعة أبولو.فكيف عكس النقاد والشعراء الرواد المغاربة هذا الرصيد المعرفي والفني، وما الاضافات المحلية التي سكبوها في معينه؟

1.عوامل التجديد الشعري ورواده:

أدباء الجزائر أيضا لم يكونوا مفصولين عن تطور الحركة الشعرية في الأدب العربي ولا سيما أولئك الذين يلمون إلماما كبيرا بالثقافة العربية القديمة، فقد كانوا دائما يرقبون ما يجد من صور وأوزان، وما يطرأ عليها من تغييرات حتى إذا أعجبوا بها أو ببعض قادتها تبعوهم ومارسوا اتجاههم في سرور واعتداد، "ولم تكن مدرسة المهجر

إلا عربية مجددة في شيء من الحرية والسماح ولم تكن جماعة أبولو إلا مدرسة متطورة في شيء من اليسر والترخيص وقد اقتدى الشابي في المغرب العربي بالمدرسة الأولى"[1].

ويصر عبد الله الركيبي على اعتبار فترة ما قبل الثورة التحريرية فترة سيطرة الشعر التقليدي وحركة الإحياء مع وجود استثناءات في المحيط الجزائري، فقد اتجه بعض الشعراء إلى الرومانسية وإلى التجديد في اللغة والصورة الفنية، وظهور بعض القصائد في الحب والطبيعة وإن كانت لا تشكل اتجاها قويا بارزا كما حدث في المشرق العربي، وأيضا نجد مطالع بعض القصائد إذا كان الشاعر يستهل قصيدته – لا بالبكاء على الأطلال مثل الأقدمين بل بالحديث عن طبيعة بلاده الساحرة أو الربيع والليل أو غير ذلك، ومنها ينتقل إلى الوطن وواقعه وما يعانيه من بؤس وشقاء تحت نير الاستعمار الغاشم[2].

فليس من السهل إذن الحديث عن مدرسة تجديدية رومانسية بثقل المدارس المشرقية بل هي محاولات فردية ناجمة عن القراءة وإعادة القراءة في نصوص المشارقة، فالنسخة عادة لا ترقى إلى الأصل.

فالفترة الرومانسية التجديدية مغربيا كادت أن تمر مرورا عابرا وفي الجزائر على الخصوص كانت النزعة العاطفية شبه محرمة في الشعر من جهة لأن الشعراء انكبوا على الهموم الاجتماعية وعكفوا على الإصلاح الديني في شعرهم، فغمرته الخطابية والأساليب التقليدية التي دعمتها ثقافتهم التراثية فالبحور كانت لا تزال تقليدية "لم يحدث فيها تجديد، وتلاحظ على الشعر هذه الفترة فقرا من حيث وصف الطبيعة، ولكن الشاعر معذور يلهو بالطبيعة وهو يدافع عن الذات والكيان، فقد اشتغل عنها وعن نواح أخرى من حياة الشعب همه بالأحداث السياسية المتعلقة بمصير البلاد"[3].

وحينما يتحدث صالح خرفي عن الشعر العاطفي جزائريا يراه قليل الشأن يكاد ينطمس بفعل العوامل السياسية التي أجبرت الجزائري أن يفطم مشاعره ويقسي قلبه للأحداث فلا يبكي ولا يتضرع شعرا ما دام يبكي ويتضرع واقعا مرا، والأمر الثاني لسيطرة الحركة التقليدية والبعد الإصلاحي في الشعر، وكان له في توجيه الشعراء نحو الإصلاح

والمواضيع الخيرية وتبث فيهم هواجس الرومانسية، فالشاعر يكتب للجماعة لا لنفسه، فقد قال اللقاني منذ سنة 1926:

الا فـــدع التغـــزل في غـــــوان فتلـك طريقـــة المستهترينـا

فمـــن صوت البلاد لنا نـــداء يكـــاد المـرء يسمعه أنينـا

ونسمع محمد السعيد الزاهري ينشغل بأمته لا بذاتيته فيقول:

ولولا عفـــاف في طباعي يصدنـي لما كنت ممن يغلب الحب تقواه

ولكن سلطـــان نفسي عفافهـا فيمنعهـا مـن شـر مـا تتمناه

ومـــا كنت أقـــوى بالفراق وإنما دعـا المجد ذا هـمّ بعيد فلبـاه

وهكذا يتجلى لنا كيف كان العاملان المأساة والتقاليد يتضافران على النص الأدبي الغزلي ويتناوبان ملاحقته والتضييق عليه، فإن أطلقت أمره نزعة تحررية في الدين ضيقت عليه نزعة محاذية في الشعور الوطني، وإن رحب به تسامح في هذه المحبة، تزمت في تلك والتقاليد لم تقف عند بسط طغيانها على بيت شعري رقيق بل امتدت حتى عاطفة (الحب) ذاتها فنظرت إليه باحتراز وتحفظ، ولم تطمئن إلى الزواج الذي تمهد له عاطفة تنشأ عن تعارف[4].

أما الصالح خرفي في كتابه عن رمضان حمود فله رأي آخر في تطور الشعر المغربي، إذ يرى أن الحراك الفكري والثقافي الذي بدأ في العشرينيات من القرن العشرين كان له بالغ الأثر في الأدب المغربي وفي تجديد ينابيعه، فالأحداث الوطنية التي شاهدتها العشرينيات في المغرب العربي والتي طرحت قضية (الحرية) بمفهومها السياسي هي ذاتها التي ألهبت (الحرية بمفهوم الإبداع)[5].

وليس من قبيل الصدفة أن تشهد فترة العشرينيات ميلاد الكتب الثلاثة التي ضمت أول مجموعة شعرية حديثة في أقطار ثلاثة من المغرب العربي متتابعة في صدورها متجاوبة الأفكار في مقدمتها، نقدية النظرة في الترجمة لشعرائها، وإن اختلف أسلوب المعالجة من كتاب لآخر[6].

وهذه الكتب هي شعراء الجزائر في العصر الحاضر: لمحمد الهادي السنوسي(1927)

الشعر التونسي في القرن الرابع عشر: زين العابدين السنوسي 1926.

الأدب العربي في المغرب الأقصى: محمد بن العباس القباج 1929.

كما صدر لرمضان حمود كتاب بذور الحياة، و وهو يضم سلسلة مقالات متميزة عن التجديد الشعري وحقيقته وعن تأثير الترجمة، وقد خاض هذا الأديب الفذ المغربي لوحده "معركة القديم والجديد تنظيرا وشعرا" ووقف من مدرسته الإحياء ممثلة في شوقي موقف جماعة الديوان منها، ولكنه تميز بتجرد الفكرة، واستقلال الرأي وربما سبق العقاد في كثير من آرائه في شوقي[7].

وقد عمَ التطور الأدبي والفكري أصقاع المغرب العربي، ففي المغرب الأقصى أخذ التطور يتغلغل في البنية الاجتماعية والثقافية والفكرية، فعملت الحركة الوطنية وسعها لبث الوعي في نفوس الناس، وشجعت على إنشاء المدارس والمعاهد العلمية، وأضحى التواصل بين المغرب والمشرق قويا عن طريق البعثات العلمية والكتب والمجلات والصحف التي كانت تصل المغرب بانتظام إلى جانب ظهور حركة نقدية عملت على نشر بعض المفاهيم في إطار اتجاهات متنوعة واتخذت من المجلات طريقا لإذاعة أفكارها مثل مجلة السلام التطوانية ومجلة المغرب.

وتعد فترة الأربعينيات مغربيا زمن اختمار الشعر الوجداني والعاطفي فليس الشعر حسب النقاد إلا "صورة صادفه لخلجات نفس صاحبه"[8]. ثم راح الشعراء المغاربة يكتسبون مفاهيما جديدة حول الشعر تجاوزت الشعراء السابقين متأثرين بالمذهب الرومانسي وبحركة النقد المشرقية،وفي كل بيئة مغربية ظهرت ثلة من الشعراء انعكست في قصائدهم نغمات جديدة وأصوات تطفح بالجدة والثورة، ومن هؤلاء عبد المجيد بن جلون، مصطفى المعداوي، وعبد السلام العلاوي[9].

وعلال بن الهاشمي الفيلالي أيضا واحد ممن جعلوا الشعر معرضا لتعابير الرومانسية التي لم يعهد صوغها يقول متأسفا:

في يـدي أرغـــن الخلود أماتـوه وقـــد كـــان يـــوسع الكـون دوا
فتهاوت آلهـــة الشعر صرعـــى من صدى الروح ضاع في غير جدوى
من خيالي صغت الجناب فقالوا شـــاعر نســـــاء للتقاليـــد محوا
رفـرفي يـــا صلاة روحـــي باللـ ـه وتهـــــي فـــي وهلة الغيب زهوا
واطلقي الروح فـي تقاليد كون أنت فـــي عالـــم الطلاسم أقوى
في دمـي واقـــع الحيـــاة أحاط وه بحلـــــم وكـان لي الحلم مهوى!

فالحديث عن أرغن الخلود، آلهة الشعر، الخيال الذي يضوع الجناب، وصلاة الروح وإطلاقها وعالم الطلاسم تعابير مرقت قشيبة إلى عالم الشعر المغربي فغيرت لهجته ونوازعه ومراميه.

واهتم الشعراء المغاربة بالطبيعة اهتمام بالغا، فوجدوا فيها ملاذا للتعبير والتغيير، "والطبيعة في المغرب من أجمل ما خلق الله، انها لوحة لا تستطيع ريشة أعظم فنان في العالم أن ترسم مثالا لها، غير أن الشعراء من الجيل الجديد حاولوا أن يحكوا في شعرهم الوصفي بعض مظاهرها"[10] وقد شغف أحمد الحلوي بالطبيعة، وعكس مواضيعها في شعره ومن ذلك وصفه لجبال الأطلس:

أبا الهول لا تشمخ بأنفك انمـــــا أيد نائحات مواهـــــــــــر
فظنك أقوام إلها مجســـــــــدا وأرجف أقوام بأنك ســـــاحر
حياءك لا تشمخ وحولك أطلـــس رفيع الذرى للهول والموت قاهر
أشابت نواصيك الخطوب وخضبت رباك دماء أنبتتها الازاهـــــر

وقد عايش الشعراء تمزقا في التفكير والتعبير عندما كانوا في مرحلة انتقالية بين التمسك بالهيكل القديم للنظم الشعري وما يضمه من تصوير وتعبير، وبين السير على هدي نصوص الرومنسيين العرب اذ "تمزق الدرس والوعي النقدي بالشعر في المغرب بين محاولة الشعراء استدامة تقليد القديم، وتمثله نصا تقليديا وفد انموذجا من المركز، وبين رغبة البعض في استكشاف الجديد واتباع اتجاهه، فمن الشعراء من كان يعود الى اعتماد عناصر البنية المرسخة للقصيدة التقليدية، ومنهم من كان يتقصى الطرائق

المحدثة من أجل التجاوب مع الظواهر التي عرفتها الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للمغرب في مرحلة استبدت السلطات السياسية للاستعمار بحياته العامة، وألقت بظلالها على وضعه، واختيارات مستقبله "[11]

وسرعان ما ظهر التيار الواقعي في هذه الأثناء أيضا مختلفا عن توجهات التيار، الإصلاحي والرومانسي، داعيا إلى الوطنية والقومية بنفس جديد فصاح النقاد المغاربة ولسان حالهم يقول "نحن نريد أدبا يمثلنا لا أدبا ينعطف على الذات ويستغرقها"، ويقول أيضا "إن داء الميوعة قد كان يستفحل ويتدخل في شؤوننا بواسطة بعض من تكتبون تحت تأثير جبران خليل جبران وتلاميذ مدرسته وأملنا أن تكون نهضتنا الفكرية والأدبية عربية مغربية[12].

ولقد تهيأت أسباب الابدال الشعري الحديث في المغرب النظري والنصي على السواء من خلال تجارب الشعراء مع عناصر نصية استقوها من أنموذج المركز الشعري، وقد كانوا استقبلوه ضمن العلاقة التي ربطتهم بالنظرية الشعرية الحديثة التي روج لها الخطاب النقدي منذ شعراء الاحياء، "فإذا كان الأول بنى خطابه النقدي على مراجعة الممارسات المتداولة ونقدها في ضوء عناصر من الاتجاهات الحديثة(الاحياء ثم الرومانسية) في المركز، فإن الثاني اعتبر تحديث الأدب ممارسة تحتاج الى العبور بمفهوم للذات الفردية وممارستها بما هي حاضرة في ثقافة تحمل تاريخها ولها لغتها"[13]

وقد لقي الاتجاه الرومانسي في تونس جدارة الترحيب والقبول بعد مرارة الرفض والثبور فقد وجدت التشكيلات الرومانسية المشرقية (المهجر، الديوان، أبولو...) وصحافتها الأدبية ومنشوراتها الشعرية ودعواتها وتنظيراتها صدى واسعا في تونس، وخاصة عند الجيل الذي فتح عينه على الكتابة انطلاقا من العشرينيات واحتضنته الصحافة الصادرة خاصة النهضة والعالم الأدبي والزمان.

وقد تجسدت الرومانسية بأقوى صورها مع أبي القاسم الشابي وسرعان ما انضم إليه جيل الشباب يردد صدى ألحانها التي عبرت الآفاق مشرقا ومغربا[14]

ويؤرخ للجديد في تونس منذ أن نشر محمد الشاذلي خزنداي في الربيع الأول من القرن العشرين محاضرة عن حياة الشعر وأطواره بقاعة الخلدونية سنة 1919 قدم فيها تصوره للشعر وأنه شيء يجيش بالصدور، ولعلها نغمة جديدة في اعتبار الشعر نفثة وجدانية مثلما صرح بها القباج المغربي وحمود الجزائري.

ثم انضم جمع من الشعراء الذين برموا بمسابقة الإمارة الشعرية إلى جريدة "الزمان" وفيهم محمد حليوي، محمد اليشروش، مصطفى خريف صحبة الشيخ بيرم التونسي فوجدوا مجالا واسعا لعمليات التهجم والانتقاد بل الانتقام من مجلة (العالم الأدبي) وكان لجمعية قدماء الصادقية دور في نشر الأدب ومسايرة موجة[15] الشعر الجديد، ومؤازرة تيار النقد الحر خاصة عندما نشرت مجلة أدبية[16] وقد ألقى بها الشابي محاضرة الخيال الشعري عند العرب منذ سنة 1929 وأثارت ضجة كبرى في الأوساط التونسية لما فيها من آراء وأفكار جديدة حول الخيال الشعري ولا سيما عند العرب الأقدمين.

وبالرغم من ضمور تيار الشعر الوجداني جزائريا بسبب التقاليد المسيطرة على الحياة الفكرية والثقافية استطاع بعض الشعراء الذين تجرعوا غصص الغربة أن يميدوا بتيار الرومانسية، ومنهم مبارك جلواح، والقاسم المشترك بين هؤلاء الأدباء المغاربة الشباب (جلواح، حمود، الشابي) أنهم كانوا ينشطون أفرادا لا جماعات لأن التيار الرومانسي مغربيا هو حالات منفردة ومجهود شخصي، وكثيرا ما كان الشباب المفعم بالروح الرومانسية يلقي من الرفض والثورة ما يجعله يحجم لأنه لا يجد السند والعضد المتين، وقد عايش هؤلاء الغربة بمنحناها الحقيقي والمجازي والرمزي، لأنهم كانوا يشعرون بالغربة في أوطانهم وهنا يكمن أكبر الضرر، وجلواح عرف الغربة في فرنسا، ومات فيها، فكانت هذه الغربة مصدرا لاستمطار أشعارهم.

وفي الجزائر المعروفة بسيطرة تيار الإصلاح ثم التيار الثوري على شأنها الشعري عرفت ظاهرة الشعر الوجداني مع مبارك جلواح[17] الذي اقترب من الطبيعة وبثها

لواعجه ونشر ستين 60 قصيدة في ديوانه الوحيد "دخان اليأس" الذي يحمل بعض تشاؤم الرومانسيين ومصطلحاتهم.

وقد حقق جلواح وغيره من شعراء الوجدان تطورا نسبيا في الشعر الحديث قبل الاستقلال بسبب رؤيتهم الشعرية التي أصبحت تولي الذات عناية خاصة وتجعلها الأساس في التجربة الشعرية، "وأصبحت العاطفة طاقة تشحن بها الأداة الفنية لغة وتصويرا... ولم يعد الشاعر كما كان في السابق يقف من موصوفاته موقفا منفصلا كالمصور الفوتغرافي الذي يقتصر على نقل الواقع بصدق وأمانة، وإنما أصبحت الصورة جزءا لا يتجزأ من شخصية الشاعر وشعوره وتفكيره"[18]

يقول من قصيدة عبرة الأسف:

وأي نجـــم ثرى دامت سعادتـه من بعد ما حل من ذا الغرب في أفق
إن السعادة كأس أنت شاربـــه فـي ظل غفلـة سمع الدهر والحدق
وإن كأسي التي جاد الكريم بهـا شربتهـــا كلهـــا فـــي ليلـــة النـــزق
ألقيت نفسي في صحراء قاحلة ممـزق القلب بيـــن الشجـو والقلق

وله قصيدة بعنوان زفرة منتحر على ضفة السين تشبه إلى حد بعيد وصية مقدم على الموت تتجلى فيها تعابير الخوف والحرقة، وتبغي الموت كطريق للخلاص من أوضار الحياة:

ياسيـــن جئتـــك في ذا الليل ملتمسـا
يعـــرض لجـــــك إخمـــادا لأنفاســـي
فـــإني لا أرى فـــــي غير مائك مـــــا
بـــــــه تطهـــــر أوضـــاري وأرجاســـي

فأي فعل أجبر عليه الشاعر حتى خيل إليه أنه بقرفه يغدو وغدا بين الناس؟ يرفض محمد الهادي الحسين فرضية انتحار جلواح كما روج بذلك في أوانه، لأنه كان من حفظة القرآن، ويقول أن قدور بن غبريط مدير مسجد باريس كان يحقد عليه، فأوغر صدر الإدارة الفرنسية عليه فاغتالته، ويقال أيضا أنه كان يتعصب لهتلر فأحس

أنه مستهدف فاختار المقام بإحدى القرى الصغيرة بريف باريس، فكان هدفا للعناصر التابعة للمقاومة الفرنسية والعناصر اليهودية[19].

2.الثورة الرومانسية في المغرب العربي:

قاد كل من الشابي التونسي ورمضان حمود الجزائري ثورة أدبية عنيفة ضد المقلدين وممثلي القصيدة المغلولة بالصنعة، فكانا شابين شاعرين تدفقت في شراييهما معالم التحديث والتجديد فطفقا يدعوان إليه بحرارة لقيت الجفاء والانكار والعداء سواءا في البيئة التونسية أو الجزائرية.

المقالات التي دبجها رمضان حمود[20] في العشرينات من القرن العشرين تثير الدهشة لأن صاحبها رغم الحجر الفكري للإستعمار الفرنسي، والفقر المدقع، وسيطرة الشعر التقليدي الطرقي والفقهي راح يطالب بتجديد القصيدة العربية، ولم يجد مانعا من الرد على أمراء الشعر العربي كأحمد شوقي ناقدا تارة وناقما تارة أخرى، وكان شاعرا حاول أن يلبس مشاعره ثوب التجربة الشعرية المتدفقة، ويسعى أن ينظم الشعر كما يشعر به لا كما تمليه عليه التقاليد البالية الموروثة، ولو أن العمر امتد به قليلا لكان شاعرا فذا واستطاع أن يغير جوهر الشعر الجزائري الذي بقي بعد موته محافظا أشد المحافظة إلى ما بعد الاستقلال فليس غريبا أن تقول عنه شهاب يوم وفاته "قد كان هذا الشاب الأديب الناهض ركنا ركينا من أركان النهضة الأدبية بالجزائر، ولو أمهلته الأيام لكان نابغتها في الأدب بمعناه الصحيح... فموته مصاب قومي مؤلم...."

وكانت مقالاته المنشورة بمجلة وادي ميزاب، الشهاب البصائر مضخمة بحس شاعري ونفس تتوق إلى الجديد أينما كان.

ولم يعد الشعر في نظر رمضان حمود كل كلام موزون ومقفى بل هو في نظره ترجمة للشعر على طريقة الرومانسيين "فالشعر وحي الضمير وإلهام الوجدان.

يقول معبرا عن هذه الحقيقة:

فقلت لهـم لمـا تباهـــوا بقولهـم

ألا فـاعلموا أن الشعـــور هو الشعر

وليس بتنسيـــق وتزييـــف عـــارف
فمـــا الشعـــر إلا ما يحن له الصدر
فهـــذا خريـــر المـــاء شعر مرتـــل
وهـــذا غنـــاء الحب ينشـــده الطير
فـــذاك هـــو الشعر الحقيقي بعينه
وإن لـــم يذقـــه الجامـد الميت الغر

كما يرفض رمضان حمود أن يبقى الشعر غريبا سجينا في كهف الكلمات الوحشية كما آثر أن يتحول الشعر إلى المجتمع على طريقة الواضعين ليصير سلاحا في خدمة المجتمع، ويترجم ذلك شعرا:

من الناس قوم لن يبالوا أن آتـــوا
بـــغريب لفـــظ أو قبيـــح بنـــاء
جعلوا الكتابـــة غاية يسعى لهـــا
أو منصبـــا لفخامـــة وثنـــاء

وقال يوجه كلاما لاذعا للمتشاعرين: "فمن شاء منكم التشطير فليشاطر مواطنيه في الأمور العظام والأعمال الجليلة، ومن أراد المعارضة فليعارض الخونة سماسرة السوء ويعاكسهم في أعمالهم الحديثة[21].

على عادة الشعراء الرومانسيين يرفض أن يبقى الشعر حبيس الوزن والقافية فرمضان حمود مؤمن كأصحاب تلك المدرسة أن الشعر تيار كهربائي مركزه الروح وخيال لطيف تقذفه النفس لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته[22] بل بعدهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة ولا ملوحة وإنما حفظا وصياغة من التلاشي والسيلان.

ويتوغل في فلسفة العروض معتقدا أن العرب الأميون حاكوا الطبيعة في نغماتها ولو كان الشعر في نظرهم وزنا وقافية، لما اتهموا محمد صلى الله عليه وسلم أنه شاعر مع علمهم بأن القرآن كلام مرسل لا أثر للوزن فيه[23].

وقد كان رمضان حمود طموحا نزاعا إلى الحرية يخاطب الناس حسب عقولهم فيسلس عباراته ويصوب نحو المستعمر سهاما لاذعة من غير وجل ولا خوف حتى كاد أن يغتال مرة فكان ثوريا في شعره وفي نقده وفي آرائه، جريئا في مواقفه، فهو يتحدث عن الحرية ويرجوها كما رجاها الرومانسيون، ولج في طلبها الواقعيون بمختلف توجهاتهم "ما أجملك أيتها الحرية وما أفظعك، جميلة لأنك نور الله ينير طريق الإنسان في هذا العالم المظلم، وفظيعة لأن الأسباب الموصلة إليك لا تخلو من الدماء والأهوال التي تقشعر منها الجلود"[24].

ويصيح قائلا بلا هوادة: "أنت وطني ما دمت ترى أنك خليقا بالبقاء وجدير بالحياة وإن كانت فؤوس الاستعمار موضوعة فوق رأسك، وقبر الدمار فاغرا فمه ليبلعك، ويقول شاكيا:

في بلادي ترى الهوان جمـالا	فــرؤوس الصغار منه تشيب
لست أدري متى نكون رجـالا	لست أدري متى الشـقاء يغيب
يا إلهي منك الشـفاء لشعبي	رب رحمـاك أنت أنت الطبيب

3. الريادة المغاربية في باب التقعيد النقدي:

لقد سبق لرمضان حمود أن انتقد أمير الشعراء بعد أن تسلم الإمارة، معترفا أن ضحالة الشأن الأدبي الجزائري وإن بدا للبعض مثبطا عن انتقاد المشارقة، فقد ألفاه محفزا على خوض غمار التجربة الانتقادية فتجاوز بالنقد حدود الانتقاد المحلي، لأنه لم يعثر على نماذج جزائرية تستحق التنويه أو تستدعي التمحيص.

يشارف صالح خرفي في دراسته الريادية لرمضان حمود أن يحكم بأسبقية هذا الشاعر والناقد في غربلة ظاهرة النظم الشعري عند أحمد شوقي حتى قبل أن يباشر العقاد هذا الأمر فيقول: "نعم إن شوقي أحيا الشعر العربي بعد موته، وفتح الباب الذي

أغلقته السنون الطوال، ولكنه مع ذلك لم يأت بجديد لم يعرف من قبل، أو سن طريقة ابتكرها من عنده وخاصة به دون غيره أو اختراع أسلوبا يلاءم العصر الحاضر، وغاية ما هنالك أنه جاء بالهيكل القديم للشعر الموضوع في قرون بلي عهدها ودرس رسمها، فكساه حلة من جميل خياله ورقة أسلوبه وفخامة ألفاظه وقوة مادته، وتوجها باتساع دائرة معارفه ومعلوماته"[25].

وطالب شوقي أن يذيع روايات شعرية دراماتيكية على غرار شعر فولتير ولامارتين وروايات شكسبير وهيغو، وقد نشر هذا المقال في سنة 1927 في وقت ألف شوقي رواياته المسرحية الشهيرة مصرع كليوباترا سنة 1929، ومجنون ليلى وقمبيز سنة 1931، فقد تحدث عنه حمود حديث المنظر الناقد الرائد بينما تحدث العقاد سنة 1930 عن شوقي حديث المؤرخ الدارس للظاهرة الأدبية المطروحة على الساحة حينما قال: "فجنح في أخريات أيامه إلى أغراض من النظم تحالف أغراضه الأولى فاتجه إلى الروايات وأكثر من الاجتماعيات والتاريخيات[26].

أما الشابي، فبالرغم من أنه مات في ريعان شبابه إلا أنه كان ثورة من لهب في وجه القديم، وقد تشربت نفسه الجديد وارتقت إليه وعكسته شعرا أو نقدا ولم تمنعه مغاربيته، ومحيطه الضيق من التحليق عاليا في عالم الرومانسية المتفائلة الثائرة فمثلها أصدق تمثيل حتى قارع عمالقتها وضارعهم،فلميقل مكانةعنجبرانولاعنالعقاد.

يرى أحمد زكي أبو شادي أن لأبي القاسم الشابي[27] روائعا كثيرة ظفرت جمعية أبولو ومجلتها بإبرازها "وإنه لتصعب المفاضلة بين قصائده هذه فجميعها يتسم بالجمال الفني الأنيق بكامل عناصره[28] ويعجب بقصائده التي مثلت بإحكام حركة الشعر الحديثة المندفعة الثائرة وفيها يتجلى "حب الاستغراق في المعاني والتحليق بالأخيلة والمثاليات النبيلة والتأنق الموسيقي في الألفاظ، وكل ذلك عن طبيعة سمحة معقولة رضعت من أفاويق اللغة ومن البيان العربي المصفى منذ طفولتها وفي طليعتها القرآن الكريم بكامله"[29].

ولقد مر الشابي في شعره بمراحل ثلاث مرحلة الغربة والضياع التي بث فيها حنينه للوطن السماوي الشبيه بعالم المثل الأفلاطوني، والمرحلة الثانية غلب عليها التأمل والانطواء فدخل جنة الغاب الأرضية كما صورها جبران في مواكبه، أما المرحلة الثالثة فغمرها الالتزام بالكفاح الوطني فتحول الشاعر من الهروب إلى الثورة[30].

يقول متبرما:

قضيت أطــوار الحياة متبرمــا في الكائنــات معذبــا مهمومــا
فوجدت أعراس الوجــود مآثما ووجدت فردوس الزمان جحيما
وحضرت مائدة الحياة فلم أجد إلا شرابـــا آجنا مسمومـــا

وقد يخيل المرء أن الشاعر متشائم لكنه رومانسي حالم وواقعي ثابت الجنان يهيل تراب التشاؤم ويقبس نور التفاؤل في الحياة.

ترجو السعادة يا قلبي ولــو وجدت
في الكون لم يشعـــل حزن ولا ألم
ولا استحالت حيــاة الناس أجمعها
وزلزلـــت هاتـــه الأكوان والنظم
خذ الحيــاة كما جاءتك مبتسمـــا
في كفهـــا الغار أو في كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متئذا
غنت لك الطير أو غنت لك الرجم

لقد كان الشابي مقاوما شرسا رغم المرض الذي ألم به والعذال الذين زادوه مرارة ومرضا لكنه كان دائما يجابههم بنفس أبية.

مـــن جـــاش بالوحي المقدس قلبه
لـــم يحتفـــل بحجارة الفلتاء[31]

وقد وضع الشابي كتاب الخيال الشعري عند العرب وهو يتضمن نصوص نقدية لاذعة اللهجة للأدب العربي القديم فهو نارة يتهمه بأنه أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، وأنه كلمة ساذجة لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار، ولا تفصح عن فكر يتصل بأقصى ناحية من نواحي النفوس[32] ثم يتهم الأدب العربي بخلوه من عمق الفكرة وسعة الخيال ودقة الشعور، ويتهمه أيضا بأنه أدب صناعة "لكنكم واجدون من يستطيع أن ينضد لكم من المنجزات الزائفة والكتابات المتكلفة ما تعجز عن بعضه جن سليمان مما لا علاقة له بالروح ولا رحم بينه وبين خيال الحياة[33].

ثم يثور على الفئة التي قدست هذا الأدب القديم وهو على هذه الصورة المزرية "لأنها تقدس كل ماض وتعبد كل قديم، لا لأن فيه حقا ونورا، ولكن لأن رداء القدم يكسبه مهابة الماضي وجلال التاريخ".

ومن هنا يصل إلى نتيجة خطيرة في حياة الأدب الحديث ملغيا اتخاذ الأدب العربي كمثل أعلى يحتذى في أسلوبه وروحه ومعناه "بل يجب أن يعد "كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس غير، أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا"[34].

وقد لمح الشابي في الشعر العربي ظاهرتين غريبتين، الأولى اتسامه بالصوت الهادر الجاهر حتى قسم ظهر المشاعر والعواطف، فمُسخ إلى خطب مشعورة، واختزلته ظاهرة الإيجاز التي تنافس حولها الشعراء، وجعلها النقاد مقياس الشعر حتى انحصرت قوته في بنية البيت بدل بنية القصيدة، وصارت القصيدة لأنها لا تعتمد على وحدة البيت "كونا صغيرا تحشر فيه الأفكار حشرا وترص فيه المعاني رصا"[35].

ويتهكم من طريقة الشاعر في نظم القصيدة، فإذا ما أراد أن يبسط فكرة من أفكاره "ألقاها في بيت فرد أو جملة واحدة إن استطاع ثم انهل بوابل من الأفكار المتتابعة بحيث تكون القصيدة كحدائق الحيوان فيها من كل لون وصنف".

ثم يرى الروح العربية التي تدبج القصائد خطابية مشتعلة لا تعرف الأنا في الفكر فضلا عن الاستغراق فيه، ومادية محضة لا تستطيع الإلمام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال مع الخيال إلى أبعد شوط... وقد كان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف ملكه الخيال الشعري في النفسية العربية، حتى كانت آثارها على ما رأيتم، ولو استقرأ الباحث للأدب العربي وبالأخص الأدب الجاهلي والأموي، لعلم أن فيه كثيرا من هاته القصائد التي لو فكت من قيود الشعر وأصفاد القريض لكانت خطبا رائعة[36].

لم يتوان الشابي في كيل التهم المتتالية للأدب العربي متبرما من وضعه الحالي ومن التقليد الذي غمر بريقه المتبقي، واتهم خيال العرب بالسطحية لأنه لا يحسن وصف جوهر الأشياء ولا يتوغل إلى قلب المشاهد بحسه وروحه، وإنما يطوف عليها طوفان الأخيلة والظلال فيقول وهو يصف طريق الشاعر العربي في الوصف "فالشاعر العربي إذا عن له مشهد جميل استخف نفسه واستفز شعوره، عمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله... عدا بعض من شذوا عن ذلك كابن الرومي والبحتري وأبو تمام[37].

لقد كان الشابي أصيلا في تجربته الفنية "بل أثر حتى في المهجريين على طول باعهم في الرومانسية بشهادة زكي أبو شادي .لقد كان فنانا ومبدعا خلاقا وإنسانيا نبيلا ووطنيا غيورا ألبس الرومانسية لباس المواجهة والصمود لا لباس الموت والتشاؤم والقعود.

خاتمة:

ومما سبق نخلص الى مايلي:

1.استطاع الرواد المغاربة في الربع الأول من القرن العشرين أن يواكبوا حركة التحديث والتغيير التي شهدها المشرق العربي، لكنهم ما لقيوا دعما ولا تشجيعا مما أدى الى تأخير تحديث النصوص الشعرية، وتثوير القيم النقدية.

2.كانت صرخات الحداثة ومحاولات التغيير مغاربيا مختزلة في اجتهادات فردية على عكس ما شهدته البيئة المشرقة المركزية التي احتدمت فيها المدارس والجمعيات التحديثية كالرابطة القلمية وجماعة أبولو والديوان.

3.ترنحت البضاعة الشعرية لرواد التحديث المغاربة بين التقليد والتجديد، لأن الذوق العام كان لا يزال محافظا مقلدا، فيما كانت النظرات النقدية أكثر ثورية تجازوزت في نظرتها أحيانا الرؤية المشرقية، واستبقت بعض قيمها كما حدث مع رمضان حمود والشابي.

الهوامش:

[1]أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث،، دار الآداب ط2مصر1977، ص 28

[2]عبد الله الركيبي: الشعر في زمن الحربة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 159.

[3]محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 400.

[4]صالح الخرفي: الشعر الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ص 295.

[5]صالح الخرفي: حمود رمضان، المؤسسة الوطنية للكتاب 1985، ص 20.

[6] المرجع السابق، ص29.

[7]صالح الخرفي: رمضان حمود ، ص 30.

[8]مجلة المغرب، ع3 يوليو 1934، محمد بن العباس القباج.

[9]أحمد الطوسي إعراب: الشعر المغربي الحديث والمعاصر بين مفهومي الاستمرارية والقطيعة، مجلة دعوة الحق عدد 33، 1994.

[10]عبد الله كنون: أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء ص:164

[11] يوسف ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي،ج1، ، دار توبقال للنشر ط1المغرب،2006،ص:210

[12]جريدة العلم عدد 276/ نمشت 1947.

[13]يوسف ناوري: الشعر الحديث في المعرب العربي، ص211:

[14]الطاهر الصمامي: جدل الفن والواقع أغاني الحياة للشابي مثالا حوليات الجامعة التونسية، ع 35 1994، ص 182 - 189.

[15]عزيز العكايشي: مظاهر الإبداع الفني في شعر ابن القاسم الشابي 1980 منشورات جامعة قسنطينة، ص 28.

[16]المرجع نفسه،ص:30

[17]شاعر جزائر من قلعة بني عباس بسطيف ولد سنة 1908، تعلم القرآن على يد والده أجبر على دخول الجيش الفرنسي للتجنيد مرتين سنة 1928 ثم سنة 1939 انضم إلى جمعية العلماء المسلمين بفرنسا للترويج لمبادئها من خلال الإشراف على جمعية التهذيب التي تأسست سنة 1936 وجد ميتا بنهر السين سنة 1943، ينظر تعريف بمعجم البايطين الشعري.

محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط2، دار الغرب الاسلامي2006 ص 498.499[18]

[19]ينظر صحيفة الشروق اليومي عدد 2010/09/13 مقال بعنوان شهيد السين.

[20]ولد رمضان حمود يوم الأحد 10 رمضان 1324 الموافق لـ 28 أكتوبر 1906 بوادي ميزاب بغرداية انتقل رفقة والده في سن 06 إلى غليزان فتعلم القرآن ومبادئ اللغة العربية والفرنسية ثم انتقل في بعثة إلى تونس كان يقوم بها الشيخان ابراهيم أطفيش والشيخ محمد التمي درس النحو والأدب والمنطق والعلوم الإسلامية ثلاث سنوات منتقلا بين مدارس السلام المدرسة القرآنية الأصلية والمدرسة الخلدونية ثم جامع الزيتونة وعاد بعد إصابته بداء السلتوفي في 26 نوفمبر 1929 /24 جمادى الآخرة 1348

[21]صالح خرفي: رمضان حمود، ص 48.

[22]صالح خرفي، رمضان حمود، ص 52.

[23]صالح خرفي، رمضان حمود، ص 53.

[24]المرجع نفسه، ص 67.

[25]صالح خرفي: رمضان حمود، ص 58.

[26]قضايا الشعر المعاصر: أحمد زكي أبو شادي، ص 76.

[27]المرجع نفسه، ص 84.

[28]صالح خرفي: رمضان حمود، ص 32.

[29]الشابي ولد في 24 فيفري 1909 كان والده قاضيا تعلم على يده، وعاش طوافا بين المدن التونسية بحثا عن الراحة لقلبه العليل، فلم يجد الراحة ولكنه وجد الموت توفي في 09 أكتوبر 1934 من آثاره ديوان أغاني الحياة، أغاني الرعاة

[30]ديوان أبي القاسم الشابي، أغاني الحياة تقديم عمر الفاروق الطباع، دار الأرقم، ط 2، 1997، ص 07.

[31]المصدر نفسه، ص 26.

[32]الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، مؤسس الهنداوي، 2012 مصر، ص 67.

[33]المرجع نفسه، ص 70.

[34]المرجع نفسه، ص 68.

[35]الخيال الشعري عند العرب، ص 81.

[36]المرجع نفسه، ص 78.

[37]المرجع نفسه، ص 72.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊